الخيال
عالم البرزخ والمثال

من كلام الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

جمع وتأليف

محمود محمود الغراب

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

التنضيد الضوئي: دار الكاتب العربي
دمشق - ☎ ٢٢٢٢٠٣٨ - ٢٢١٩٧٣٨

الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مطبعة نضر
١٠٠٠ (ن)

الإهداء

إلى مشايخي أهل العرفان الذين أرشدوني ودفعوني دفعاً إلى طريق أهل الحق.

المرحوم سيدي العارف بالله الشيخ محمد صادق العدوي إمام جامع سيدي الدردير وخطيب جامع الروم سابقاً بالقاهرة.

المرحوم سيدي العارف بالله الشيخ محمد المختار بن يوسف الشنقيطي إمام في التجرد والتوكل بالمدينة المنورة.

المرحوم سيدي العارف بالله الشيخ أحمد الحارون الحجار شيخ شيوخ زمانه بدمشق.

إلى والديّ

أبي المرحوم الشيخ محمود الغراب رئيس محكمة مصر الشرعية سابقاً وأمي المرحومة فاطمة بنت محمد الخولي.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صورة الكمال، خلق سبحانه الخيال وجعله هيولى لعالم المثال، ومجلى للجلال والجمال، فهو عالم غريب، بعيد قريب، تساوى فيه العدو والحبيب، كل منهما له فيه نصيب، إما عذاب أليم، أو نعيم مقيم، لا ينكره أهل الإلحاد ولا أهل الأديان، لأنه من حقيقة الإنسان، ومن عالم الحدثان، فأقرته جميع الملل والنحل، لأنه مقارن لها من الأزل، أظهر الحق فيه بديع صنعته، وبالغ حكمته وقدرته، منه ظاهر ملموس، ومنه باطن محسوس، ومع هذا فقد حارت في إدراكه النفوس، لأنه جامع لأسماء القدوس، هو مسرح عيون العارفين، وغاية إدراك الطالبين، تجلى فيه الحق، فطلبه الخلق، أهل الكذب منهم وأهل الصدق، فهو لأهل الباطل وهَمْ، ولأهل الإيمان حق وعلم، فهذا المخلوق الكثيف اللطيف، يحتاج إلى تعريف، لأن أثره له التصريف، فحارت فيه العقول بأفكارها، والألباب في إخبارها، لأنها لم تشهد له عيناً، ولا علمت له أيناً، ومع ذلك لم تطلب عليه دليلاً، فإنها لا تجد لإنكاره سبيلاً، يحكم في الصغير والكبير، والغني والفقير، وتحير فيه العالم النحرير، لذلك أنشأ الشرق والغرب له المعاهد، وشحذت له العلماء المقاصد، كي تصل إلى معرفة كنهه، أو تتفق على وصفه ونعته، وفيه يقول الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي:

عجبت لموجود حوى كل صورة ... من الملأ العلوي والجن والبشر
ومن عالَم أدنى ومن عالَم علا ... ومن حيوان كان أو نبت أو حجر
ولـيـسـت سواه ولا هي عينـه ... وفي كل شيء شاء من صورة ظهر
ويبدو إلى الأبصار من حيث ذاته ... ويخفى على الألباب ذاك ويُستَتَر
فتجهله الألباب من حكم فكرها ... وتظهره الأوهام للسمع والبصر
هو الحي لكن لا حياة بذاته ... تقوم كما قامت بها سائر الصور
فمَنْ هو خُبْرٌ في الذي قد ذكرته ... بما قد وصفناه وترمي به الفكر
فها هو مخفي وليس بغائبٍ ... وها هو منظور ويخفى على النظر
فياليت شعري هل سمعتم بمثله ... ألا فاخبروني إن هذا هو العبر
ولم يدر ما جئنا به غير واحد ... هو الله لا تدري به سائر الفطر
وما مثله إلاَّ شخيصٌ وإنني ... عجبت له من كامل وهو مختصر

هذا هو الخيال الذي يدخله النائم في نومه، فيرى فيه من العجائب ما يبهر العقول، ويرى فيه ما مضى وما هو آت، ويسمع فيه لغاتٍ ولهجات، في الأصل يجهلها، وفيه يفهمها، ويرى ما يفزعه فتضطرب له أعضاؤه، ويرى ما ينعشه فتطرب له روحه، ويدخله اليقظان في يقظته فيصور فيه ما شاء من أحلامه وأوهامه، فما يراه النائم في النوم بعض منه، لا تعمل له فيه، وما يراه الإنسان في يقظته جزء منه، ليس بخارج عنه، هذا كل ما يعرفه العامة وأكثر الناس عن الخيال، وأما الخاصة وأهل الكشف من أهل الإيمان، الذين يرون في اليقظة ما لا يراه الآخرون، ويسمعون ما لا يسمعه الحاضرون، ففي هذا الخيال يرى الواحد منهم ما يرى، ويخبر صادقاً عما يسمع ويرى، وكذلك أهل الرياضة من جميع الملل وأهل السِحْر، لهم في هذا الخيال الباع الطويل، فإن الشيطان يشاركهم فيه، وهو لهم شر مرشد ومعين، وفي هذا الخيال يدرك الماديون ما يرونه ويدركونه من خوارق وآثار، من حيث لا يشعرون ولا يدرون، فلا يستطيعون إنكارها، ولا يقدرون على حل

أسرارها، فجمعت في هذا الكتاب ما وفقني الله تعالى إليه من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي عن هذا المخلوق العجيب، حيث يفصله عقلاً ونقلاً ـ حتى يتضح للقارىء الفرق بين الخيال والتخيل، ولا يعلم ذلك إلا من أعطي التمييز بين عصا موسى عليه السلام وعصي السحرة ـ ثم ينتقل بنا رضي الله عنه إلى أن الوجود الحادث إنما يظهر في حضرة الخيال الحق، فإن كل ما يتحول وليس له ثبات إنما هو خيال، نبه على ذلك رسول الله ﷺ بقوله «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» فالأمر هين عندنا أهل الإيمان، وهو أهون على أهل الإحسان، فلا نحتاج فيه إلى المعاهد والمخابر، التي يجهد فيها الماديون لتعليل آثار، هي عندنا من الغيب ومما وراء طور العقل، فيحاولون إخضاعها للعلم التجريبي ونتائج الآلات، فإلى أن يصلوا إلى هذه الحقائق الغيبية فيشاركوننا عند ذلك فيها، وأما نحن فنكون قد فزنا بالإيمان بما هو وراء طور العقل من الخلق، بفضل من الله ونعمة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

محمود محمود الغراب

ص. ب ٣٣٣

دمشق في ٢٤/ ٢/ ١٩٨٤

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف البرزخ:

لما كان البرزخ أمراً فاصلاً بين معلومٍ وغير معلوم، وبين معدوم وموجود، وبين منفي ومثبت، وبين معقول وغير معقول، سمي برزخاً اصطلاحاً، فما من منزلة من المنازل ولا منازلة من المنازلات[1]، ولا مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال، ولا حضرة من الحضرات، ولا جنس من الأجناس، إلا وبينهما برزخ، كالنخلة برزخ بين النبات والحيوان، والكمأة برزخ بين الجماد والنبات، والممكن برزخ بين الوجود والعدم. والبرزخ الذي بين الحق والخلق في المعنى، فيه اتصف الممكن بعالِم وقادر وجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا، واتصف الحق بالتعجب والتبشش والضحك والفرح والمعية وأكثر النعوت الكونية، والإنسان الكامل أقامه الحق برزخاً بين الحق والعالَم، فيظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقاً، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلْقاً. (ف ح١/ ٣٠٤، ٤١ ـ ح٢/ ٣٩١)

فالبرزخ ما قابل الطرفين بذاته، وأبدى لذي عينين من عجائب آياته ما يدل على قوته، ويستدل به على كرمه وفتوته، فهو القلب الحُوّل، والذي في كل صورة يتحول، عولت عليه الأكابر حين جهلته الأصاغر، فله المضاء في الحكم، وله القدم الراسخة في الكيف والكم، سريع الاستحالة، يعرف العارفون حاله، بيده مقاليد الأمور، وإليه مسانيد الغرور، له النسب الشريف، والمنصب الكياني المنيف، تلطف في كثافته، وتكثف في لطافته، يجرحه العقل ببرهانه، ويعدله الشرع بقوة سلطانه، يحكم في كل موجود، ويدل على صحة حكمه بما يعطيه الشهود، ويعترف به الجاهل بقدره والعالِم، ولا يقدر على رد حكمه حاكِم. (ف ح٤/ ٣٢٨)

---

(١) راجع شرح المنزل والمنازلة في كتابنا «شرح كلمات الصوفية».

علم البرزخ:

البرازخ أتم المقامات علماً بالأمور، فإن البرزخ يعم الطرفين، وهو مقام الأسماء الإلهية، فإنها برزخ بيننا وبين المسمى، فلها نظر إليه من كونها اسماً له، ولها نظر إلينا من حيث ما تعطي فينا من الآثار المنسوبة إلى المسمى، فتعرف المسمى وتعرفنا، فعلم البرازخ له من القيامة الأعراف، ومن الأسماء الاتصاف، فقد حاز الأَنْصَاف، فما هو عين الاسم ولا عين المسمى، ولا يعرف هويته إلا من يفك المعمَّى، وقد استوى فيه البصير والأعمى، وهو الظل بين الأنوار والظُلَم، والحد الفاصل بين الوجود والعدم، وإليه ينتهي الطريق الأمم، وهو حد الوقفة بين المقامين لمن فهم، له من الأزمنة الحال اللازم، فهو الوجود الدائم، فمن أراد العلم بصورة الحال، فليحقق علم الخيال، فيه ظهرت القدرة، وهو الذي أنار بدره، فلا يتقلب إلا في الصور، ولا يظهر إلا في مقام البشر، ولست أعني بالبشر الأناسي، فإني كنت أشهد على نفسي بإفلاسي، فما ثَمَّ إلا وعاء، وآنية ملاء، فتدبر تتبصر، فإن البرزخ جامع الطرفين، والساحةُ بين العَلَمين، له ما بين النقطة والمحيط، وليس بمُرَكَّب ولا بسيط، حظه من الأحكام المباح، ولهذا كان له الاختيار والسراح، لم يتقيد بمحظور ولا واجب، ولا مكروه ولا مندوب إليه في جميع المذاهب.

(ف ح٢/ ٦٠٩، ٢٠٣ - ح٤/ ٣٣٧، ٣٨٩، ٣٣٧)

الحقائـــق

اعلم أن الحقائق أربع، منها ثلاث ترجع إلى الحق تعالى، وحقيقة ترجع إلى الخلق، أما الثلاث التي ترجع إلى الحق: فحقيقة ترجع إلى الذات المقدسة، وحقيقة ترجع إلى الصفات المنزهة، وحقيقة ترجع إلى الأفعال الإلهية، وأما الحقيقة التي ترجع إلى الخلق، فهي الحقيقة التي ترجع إلى المفعولات، وهي الأكوان والمكوَنات، التي هي حضرة الإمكان، فإن العبودية لا تشرك الربوبية في الحقائق التي بها يكون إلهاً، كما أن العبد بحقائقه يكون مألوهاً، فلو وقع الاشتراك في الحقائق، لكان إلهاً واحداً أو عبداً واحداً، أي عيناً واحدة، وهذا لا يصح أبداً، فلابد أن تكون الحقائق متباينة، ولو نُسِبَت إلى عين واحدة،

ولهذا باين خلقه بقِدمه، كما باينوه بحدوثهم، واجتمعت الحضرتان ـ حضرة الحق وحضرة الخلق ـ في أن كل واحـدة منهما معقولة من ثلاث حقائق، ذاتٌ، وصفةٌ، ورابطة بين الصفة والموصوف بها، غير أن العبد له ثلاثة أحوال: حالة مع نفسه لا غير ـ في الوقت الذي يكون فيه نائم القلب عن كل شيء ـ وحالة مع الله، وحالة مع العالَم، والباري سبحانه مباين لنا، فإن له حالين: حال من أجله، وحال من أجل خلقه، وليس فوقه موجود، فيكون له تعالى وصف تعلق به. (ف ح١/ ٣٣، ٥٣)

الحقيقة الكونية:

الحقيقـة الكـونية على ثلاث مراتب: علوية وهي المعقولات، وهي مرتبة للمعاني المجردة عن المواد التي من شأنها أن تدرك بالعقول، وسفلية وهي المحسوسات، من شأنها أن تُدْرَك بالحواس، وبرزخية ومن شأنها أن تدرك بالعقل والحواس، وهي المتخيلات، وهي تشكل المعاني في الصور المحسوسة، وما تصوره القوة المصورة الخادمة للعقل، وأجرى الله تعالى المعاني في المخاطبات، مجرى المحسوسات في الصور، التي تقبل التجزي والانقسام والقلة والكثـرة، وجعل محل ذلك حضرة الخيال، فتحصر المعاني في الخطاب، فتتلقاها بالتشبيه العقول، كما تتلقى بالمحسوسات التي شبهت بها هذه المعاني، التي ليس من شأنها بالنظر إلى ذاتها، أن تكون متميزة أو منقسمة، أو قليلة أو كثيرة، أو ذات حد ومقدار وكيف وكم، وجعل لنا الدليل على قبول ما أتى به من هذا القبيل في هذه الصورة، ما يراه النائم في نومه، من العلم في صورة اللبن، فيشربه حتى يرى الري يخرج من أظفاره، فقيل له: ما أولته يارسول الله؟ يريد ما تؤول إليه صورة ما رأيت؟ فقال: العلم، ومعلوم أن العلم ليس بجسم يسمى لبناً، ولا هو لبن، وإنما هو معنى مجرد عن الصور التي من شأنها أن تدركها الحواس، ولولا مناسبةٌ بين العلم واللبن جامعةٌ، ما ظهر بصورته في عالم الخيال، عرف ذلـك من عرفه، وجهله من جهله[1]، وكان من تلك الحضرة، ما قال الشارع في تقسيم العقول على الناس كما تقسم الحبوب، فمن الناس من حصل له من العقل ـ الممثل

(١) المناسبة هو أن اللبن غذاء الأشباح فطرة، والعلم غذاء الأرواح.

في الصور التي من شأنها أن تكال ـ القفيز والقفيزان، والأكثر والأقل، والمد والمدان، والأكثر والأقل، لما أراد الله من ذلك، وأما الموزون فالأعمال ـ وهي معان عرضية تعرض للعامل ـ فألحقها الله بالموزون، فقال ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ وقال ﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾ فأدخل العمل في الميزان فكان موزوناً، ولكن في هذه الحضرة المثالية، التي لا تدرك المعاني إلا في صورة المحسوس، حتى التجلي الإلهي في النوم، فلا ترى الحق إلا صورة، وقد ورد في ذلك من الأخبار ما يغني عن الاستقصاء في تحقيق ذلك، وهو شيء يعلمه كل إنسان، إذ كل إنسان له تخيل في اليقظة والمنام، ولهذا يعبر ما يدركه الخيال، لأن الحضرات تحكم على النازل فيها، وتكسوه من خِلَعِها ما تشاء، فالحكم للحضرة والموطن، لأن الحكم للحقائق، والمعاني توجب أحكامها لمن قامت به.

(ف ح١/ ٣٣ ـ ح٢/ ٦٦ ـ ح١/ ٥٩١ ـ ح٢/ ٦٦ ـ ح١/ ٥٧ ـ ح٢/ ٦٦ ـ ح١/ ٥٩٢)

المعلومـــات:

المعلومات ثلاثة لا رابع لها: وهي الوجود المطلق الذي لا يتقيد، وهو وجود الله تعالى الواجب الوجود لنفسه، والمعلوم الآخر العدم المطلق، الذي هو عدم لنفسه، وهو الذي لا يتقيد أصلاً وهو المحال، وهو في مقابلة الوجود المطلق، وكما أسلفنا أنه ما من نقيضين متقابلين، إلا وبينهما فاصل، به يتميز كل واحد من الآخر، وهو المانع أن يتصف الواحد بصفة الآخر، وهذا الفاصل هو البرزخ الأعلى، وهو برزخ البرازخ، له وجه إلى الوجود ووجه إلى العدم، فهو يقابل كل واحد من المعلومين بذاته، وهو المعلوم الثالث، وفيه جميع الممكنات وهي لا تتناهى، كما أنه كل واحد من المعلومين لا يتناهى، وللممكنات في هذا المعلوم الثالث ـ الذي نسميه حضرة الإمكان، وهو البرزخ بين الوجود والعدم ـ أعيانٌ ثابتة من الوجه الذي ينظر إليها الوجود المطلق، ومن هذا الوجه ينطلق عليها اسم الشيء، الذي إذا أراد الحق إيجاده قال له ﴿كن فيكون﴾ وليس له أعيانٌ موجودة من الوجه الذي ينظر إليه من العدم المطلق، ولهذا يقال له ﴿كن﴾ وكن حرف وجودي، فإنه لو أنه كائن ما قيل له كن، وهذه الممكنات في هذا البرزخ بما هي عليه وما تكون إذا كانت، مما تتصف به من

الأحوال والأعراض والصفات والأكوان، وهذا هو العالَم الذي لا يتناهى، وما له طرف يُنْتَهى إليه، وهو العامر الذي عمر الأرض التي خُلِقَت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام، عمارة الصورة الظاهرة للرائي في الجسم الصقيل، عمارة إفاضة، ومن هذا البرزخ وجود الممكنات، وبها يتعلق رؤية الحق للأشياء قبل كونها، ويقال له الوجود الخيالي، يقول له الحق ﴿كن﴾ في الوجود العيني، فيكون ـ هذا السامع هذا الأمرَ الإلهي ـ وجوداً عينياً يدركه الحس، أي يتعلق به في الوجود المحسوس الحس، كما تعلق به الخيال في الوجود الخيالي. (ف ح٣/ ٤٦ ـ ح٤/ ٢١١)

حقيقة الخيال المطلق:

الخيال المطلق هو المسمى بالعماء، وهو الحضرة الجامعة والمرتبة الشاملة، وانتشاء هذا العماء من نَفَس الرحمن، الذي هو أول ظرف قَبِلَ كينونةَ الحق[1]، وهو الحق المخلوق به كل شيء، وفتح الله في هذا العماء صور كل ما سواه من العالم، واختلاف أعيان الممكنات في أنفسها في ثبوتها، والحكم لها فيمن ظهر فيها، ألا إن ذلك العماء هو الخيال المحقق، ألا تراه يقبل صور الكائنات كلها، وتصوير ما ليس بكائن، هذا لاتساعه، فهو عين العماء لا غيره، وفيه ظهرت جميع الممكنات، وهذه الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى، هي للأعيان التي يتضمنها هذا البرزخ، بمنزلة الظلالات للأجسام، ثم إن هذا العماء هو عين البرزخ، بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود، وبين الأجسام النورية والطبيعية، كالعلم والحركة، هذا في النفوس، وهذه في الأجسام، فتتجسد في حضرة الخيال، كالعلم في صورة اللبن، وكذلك تعيين النسب ـ وإن كانت لا عين لها في النفس ولا في الجسم ـ كالثبات في الأمر نسبة إلى الثابت فيه، يظهر هذا الثبات في صورة القيد المحسوس في حضرة الخيال المتصل، وكالأرواح في صور الأجسام المتشكلة الظاهرة بها، كجبريل في صورة دحية، ومن ظهر من الملائكة في صور الذر يوم بدر، هذا في الخيال المنفصل، وكالعصا والحبال في صور الحيات تسعى، كما قال ﴿يخيل إليه﴾ يعني إلى موسى ﴿من سحرهم﴾ أي من علمهم

(١) إشارة إلى الحديث، قيل لرسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء.

بما فعلوه ﴿أنها تسعى﴾ فأقاموا ذلك في حضرة الخيال، فأدركها موسى مخيلة، ولا يعرف أنها مخيلة، بل ظن أنها مثل عصاه في الحكم، ولهذا خاف فقيل له ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ (ف ح٢/ ٣١٠، ٣١٢، ٣١١)

وتلك الحضرة البرزخية، هي ظل الوجود المطلق من الاسم النور، الذي ينطلق على وجوده، ووجود الأعيان ظل لذلك الظل، والظلالات المحسوسة ظلالات هذه الموجودات في الحس، ولما كان الظل في حكم الزوال لا في حكم الثبات، وكانت الممكنات وإن وجدت في حكم العدم، سميت ظلالات، ليفصل بينها وبين من له الثبات المطلق في الوجود - وهو واجب الوجود سبحانه - وبين من له الثبات المطلق في العدم وهو المحال، لتتميز المراتب، فالأعيان الموجودات إذا ظهرت ففي هذا البرزخ هي، فإنه ما ثَمَّ حضرة تخرج إليها، ففيها تكتسب حالة الوجود، والوجود فيها متناهٍ ما حصل منه، والإيجاد فيها لا ينتهي، فما من صورة موجودة إلا والعين الثابتة عينها، والوجود عليها كالثوب، ولذلك نقول: إن كل ظاهر من العالم صورة ممثلة كيانية، مضاهية لصورة إلهية من حيث الاسم الظاهر[1]. (ف ح٣/ ٤٦، ٤٧٠)

حضرة الخيال هو عالم الجبروت ومجمع البحرين:

إذا انتقلنا من برزخ البرازخ وهو حضرة الإمكان، من حيث أن الصور بما هي صور هي المتخيلات، والعماء الظاهرة فيه هو الخيال المطلق، وأنها حضرة علمية معقولة، إذ انتقلنا إلى الوجود الحادث، قلنا: إن العالَم عالمان، والحضرة حضرتان، وإن كان قد تولد بينهما حضرة ثالثة من مجموعهما، فالحضرة الواحدة حضرة الغيب، ولها عالم يقال له: عالم الغيب أو عالم الملكوت، وهو عالم المعاني والغيب، وهو عالم العقل، والحضرة الثانية حضرة الحس والشهادة، ويقال لعالَمها: عالَم المُلْك أو عالم الشهادة والحرف، وهو عالم الحس والظهور، ومدرك هذا العالم بالبصر، ومدرك عالم الغيب بالبصيرة، والمتولد من اجتماعهما

(١) يعني أن جميع العالم ظهر في الوجود، على نفس الصورة التي كان عليها في العلم الإلهي قبل خلق الخلق - راجع كتابنا شرح كلمات الصوفية الطبعة الأولى ص ٣٤٨ الطبعة الثانية ٣٨٩ «ظهر العالم على صورة الحق».

حضرة وعالَم، فالحضرة الخيال أو البرزخ، والعالَم عالَم الخيال، ويسميه بعض أهل الطريق عالَم الجبروت، وهو الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، وهكذا هو عندي.
(ف ح٢/ ٣١١ - ح٣/ ٤٢ - ح٢/ ١٢٩ - ح١/ ٣٩٥ - ح٣/ ٤٢ - ح٢/ ١٢٩)

وعالم البرزخ هذا، تنزل المعاني فيه في الصور والقوالب الحسية، فليست من عالم الغيب لما لبسته من الصور الحسية، وليست من عالم الشهادة لأنها معاني مجردة، وظهورها بتلك الصور أمر عارض عَرَضَ للمدرِك لها، لا للمعنى في نفسه، كالعلم في صورة اللبن، والثبات في الدين في صورة القيد، والإسلام في صورة العَمَد، والإيمان في صور العروة، وجبريل في صورة دحية الكلبي وفي صورة الأعرابي، وتمثل لمريم في صورة بشر سوي، ولذلك كانت حضرة الخيال أوسع الحضرات جوداً، لأنها تجمع العالَمين، فهي مجمع البحرين، بحر المعاني وبحر المحسوسات، فالمحسوس لا يكون معنى، والمعنى لا يكون محسوساً، ولذلك سمي الخيال خيالاً، لأنا نعرف أن ذلك راجع إلى الناظر لا إلى الشيء نفسه، فالشيء في نفسه ثابت على حقيقته لا يتبدل - لأن الحقائق لا تتبدل - ويظهر إلى الناظر في صور متنوعة، وذلك التنوع حقيقة أيضاً، لا تتبدل عن تنوعها، فلا تقبل الثبوت على صورة واحدة، بل حقيقتها الثبوت على التنوع، وحضرة الخيال التي عبرنا عنه بمجمع البحرين، هو يجسد المعاني، ويلطف المحسوس، ويقلب في عين الناظر عين كل معلوم، فيجمع عالم الغيب وعالم الشهادة، فإن حضرة الغيب لا تسع عالم الشهادة، فإنه ما بقي فيها خلاء، وكذلك حضرة الشهادة، فحضرة الخيال أوسع بلا شك، فإن الخيال لقوته أوسع الكائنات وأكمل الموجودات، ويقبل الصور الروحانيات، وهو التشكل في الصور المختلفة من الاستحالة الكائنة، والاستحالة منها ما فيها سرعة، كاستحالة الأرواح صوراً جسدية، فإن الأرواح في الصور الخيالية معانٍ لا ثبات لها، فإنها سريعة الزوال، من النائم باليقظة، ومن المكاشف بالرجوع إلى حسه، وكاستحالة المعاني صوراً جسدية، تظهر في كون هذا العماء، فإن المعاني إذا تجسدت في عالم المثال، وظهرت صوراً في الجسم المشترك، كما أخبر عليه السلام من أن الزهراوين - البقرة وآل عمران - يأتيان يوم القيامة لهما لسانان وشفتان، يشهدان لمن قرأهما، ومعلوم حقيقة الكلام وأنه معنى من المعاني، جثمانياً كان أو

غير جثماني، وكالدين في صورة القيد، والعلم في صورة اللبن، والإسلام في صورة العَمَد، فيقع النعت من الناعت، والوصف من الواصف لهذا المعنى، على هذه الصورة التي يظهر فيها له من عالم المثال، فيوصف بما توصف به الصور التي يتجلى فيها، وثم استحالات فيها بطء، كاستحالة العناصر، فهي وإن كانت استحالات، فما لها سرعة استحالة الصور في القوة المتخيلة في الإنسان، وهو الخيال المتصل، ولا في استحالات صور الأرواح في صور الأجسام أجساداً، كالملائكة في صور البشر، فإن السرعة هناك أقوى، وكذا زوالها، أسرع من استحالات الأجسام بعد الموت إلى ما تستحيل إليه.

(ف ح ١/ ٣٩٥ ـ ح٣/ ٤٢، ٣٦١، ٤٧٠، ٤٢ ـ ح٢/ ٣١١ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح٢/ ٣١١ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح٢/ ٣١١)

فالبرزخ هو الحاكم المتحكم، الذي يحكم ولا يحكم عليه، مع كونه مخلوقاً، فإنه بين بين، وهو مقام بين هذين، فما هو أحدهما، بل هو مجموع الإثنين، فله العز الشامخ، والمجد الباذخ، والمقام الراسخ، وهو عندنا ليست له ذات قائمة، فإنك إذا أدركت الخيال وكنت عاقلاً، تعلم أنك أدركت شيئاً وجودياً وقع بصرك عليه، وتعلم قطعاً بدليل، أنه ما ثَمَّ شيء رأساً وأصلاً، فهو معقول في نفسه، فما هو هذا الذي أثبت له شيئية وجودية، ونفيتها عنه في حال إثباتك إياها؟ فالخيال لا موجود ولا معدوم، ولا معلوم ولا مجهول، ولا منفي ولا مثبت، كما يدرك الإنسان صورته في المرآة، يعلم قطعاً أنه أدرك صورته بوجه، ويعلم قطعاً أنه ما أدرك صورته بوجه، لما يرى فيها من الدقة إذا كان جرم المرأة صغيراً، ويعلم أن صورته أكبر من التي رأى بها لا يتقارب، وإذا كان جرم المرآة كبيراً فيرى صورته في غاية الكبر، ويقطع أن صورته أصغر من التي رأى، فلا يقدر أن ينكر أنه رأى صورته، ويعلم أنه ليس في المرآة صورته، ولا هي بينه وبين المرآة[1]، فالصورة في المرآة جسد برزخي، كالصورة التي يراها النائم إذا وافقت الصورة الخارجية، وكذلك الميت والمكاشف، وصورة المرآة أصدق ما يعطيه البرزخ، إذا كانت المرآة على شكل خاص ومقدار جرم خاص، فإن لم تكن كذلك، لم تصدق في كل ما تعطيه، بل تصدق في البعض، فالجسم الصقيل أحد الأمور التي تعطي

(١) يعني الشيخ بالصغر والكبر المرايا المحدبة والمقعرة.

صور البرزخ، ولهذا لا تتعلق الرؤية فيها إلا بالمحسوسات، فإن الخيال لا يمسك إلا ما له صورة محسوسة، أو مركب من أجزاء محسوسة تركبها القوة المصورة، فتعطي صورة لم يكن لها في الحس وجود أصلاً، لكن أجزاء ما تركبت منه محسوسة لهذا الرائي بلا شك، والرائي ليس بصادق ولا كاذب في قوله، إنه رأى صورته ما رأى صورته، فما تلك الصورة المرئية، وأين محلها وما شأنها؟ فهي منفية ثابتة، موجودة معدومة، معلومة مجهولة، أظهر الله سبحانه هذه الحقيقة لعبده ضرب مثال، ليعلم ويتحقق أنه إذا عجز وحار في درك حقيقة هذا، وهو من العالم، ولم يحصل عنده علم بحقيقة هذا، فهو بخالقها أعجز وأجهل وأشد حيرة.

(ف ح٣/ ٣٦١ - ح٤/ ٣٣٧ - ح١/ ٣٠٤، ١٠٠، ٣٠٤، ١٦٣، ٣٠٤)

الخيال له الحكم في جميع الحضرات الوجودية:

إن الخيـــال هو الـذي يتحكم ... في أصله وهـو المـزاج الأقـدم
فتراه يحكم في المزاج وفي النهى ... من نفســه فهـو الإمام الأعظم
يقضي[1] على سر الوجود بحاله ... مَنْ جَسَّم المعنى فذاك الأحكم
ويَحُـدُّ مَنْ لا يعــتريــه تحيـز ... بتـحيــز [2] وتـيـقن يتــوهم
ويقسم الأمـر الـذي ما فيـه تقـــــسيم ويمضي ما يشــاء ويحكم

(ديوان/ ٤٣١)

ما أوسع حضرة الخيال، فيها يظهر وجود المحال، بل لا يظهر فيها على التحقيق إلا وجود المحال[3]، فإن الواجب الوجود وهو الله تعالى لا يقبل الصور، وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة، فقد قَبِلَ المُحَالُ الوجودِ الوجودَ في هذه الحضرة، فما قبل شيء من المحدثات صورة الحق سوى الخيال، وفي هذه الحضرة يرى الجسم في مكـانين، كما رأى آدم نفسه خارجاً عن قبضة الحق، فلما بسط الحق يده فإذا فيها آدم وذريته - الحديث - فهو في القبضة، وهو عينه خارج عن القبضة، فلا تقبل هذه الحضرة إلا وجود المحالات، وكذلك الإنسان

(١) يحكم.
(٢) في الاصل «بتحيز»
(٣) يعني الشيخ هنا المحال العقلي لا الوجودي.

في بيته نائم، ويرى نفسه على صورته المعهودة في مدينة أخرى، وعلى حالة أخرى تخالف حاله الذي هو عليها، وهو عينه لا غيره، فيرى الإنسان نفسه في المنام ـ وهو عين واحدة ـ في أماكن متعددة، والعقول تحيل أن يكون الجسم في مكانين، والخيال قد حكم به، فإذا كان المخلوق في قوته الإمكان، فيما أحاله دليل عقل الإنسان، فما ظنك بخالق هذا المخلوق وهو الواحد الحق؟ ومن هذا الباب مشاهدة المقتول في سبيل الله في المعركة، وهو في نفس الأمر حي يرزق ويأكل، يدركه المؤمن بإيمانه، والمكاشف ببصره، وكالميت في قبره، يشاهده ساكناً وهو متكلم يُسأل ويجيب[1]، فإن قلت لمن يرى هذا إنه خيل له، يقول لك: بل أنت خيل لك أنه ساكت وهو متكلم، وخيل لك أنه مضطجع وهو قاعد، ويعضده في قوله الإيمان بالخبر الصحيح الوارد، فهو أقوى في الدلالة منك، فعينه أتم نظراً من عينك، والكامل النظر الذي هو أكمل من الاثنين، يقول لكل واحد منهما: صدقت، هو ساكت متكلم، مضطجع قاعد، مقتول حي، وكل صورة مشهوده فيه من الباب الذي ذكرناه، ومن ذلك الصورة في المرآة وكل جسم صقيل، إن كان الجسم الصقيل كبيراً كبرت الصورة المرئية فيه، ثم إذا نظرت إلى الصورة من خارج، وجدتها غير متنوعة فيما ظهر فيها من التنوع بتنوع المرائي، حتى في تموج الماء تظهر الصورة متموجة، وكل عين ـ أي كل نظرة ـ تقول للأخرى: إنها في مقام الخيال، وإن الحق بيدها، وتصدق كل نظرة منها، فتعلم قطعاً أن الصورة المرئية في المرائي والأجسام الصقيلة، إنما ظهورها في الخيال كرؤية النائم وتشكل الروحاني سواء، وأنها ليست في المرآة ولا في الحس، فإنها تخالف صورة الحس، من حيث تعلقه الخاص به دون المرآة، وليس في الوجود في الغيب والشهادة إلا ما ذكرناه، فثبت بذلك أن الحكم للخيال بكل وجه وعلى كل حال، في المحسوس والمعقول والحواس والعقول، وفي الصور والمعاني، وفي المُحْدَث وفي القديم، وفي المحال وفي الممكن وفي الواجب، فإن الله سلَّطه على المعاني يكسوها مواد يظهر فيها، لا يتمكن لمعنى يمنع نفسه منه، فحاز الخيال درجة الحس والمعنى، فلَطَّف المحسوس، وكثَّف المعنى، فكان له الاقتدار التام.

(ف ح٢/ ٣١٢ ـ ح٤/ ٣٦٠ ـ ح٢/ ٣١٢، ٣١٣ ـ ح٣/ ٢٣٢، ٤٥١)

---

(١) إشارة إلى سؤال الملكين في القبر.

ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة، وهذا الركن من المعرفة إذا لم يحصل للعارفين، فما عندهم من المعرفة رائحة، فمن العلم الذي يختص به أهل الله تعالى، معرفة الكشف الخيالي، ثم إنه مما يؤيد ما ذكرناه، أنك لا تشك أنك مدرك لما أدركته أنه حق محسوس، لما تعلق به الحس، وأن الحديث الوارد عن النبي ﷺ في قوله «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» فنبه أن ما أدركتموه في هذه الدار مثل إدراك النائم، بل هو إدراك النائم في النوم، وهو خيال، ولا تشك أن الناس في برزخ بين هذه الدار والدار الآخرة، وهو مقام الخيال، فانتباهك بالموت، هو كمن يرى أنه استيقظ في النوم في حال نومه، فيقول في النوم: رأيت كذا وكذا، وهو يظن أنه قد استيقظ، ثم إذا بعث في النشأة الآخرة، يقول المبعوث ﴿من بعثنا من مرقدنا هذا﴾ فكأن كونه في مدة موته كالنائم في حال نومه، مع كون الشارع سماه يقظة، وهكذا كل حال تكون فيه، لابد لك من الانتقال عنه، وتبقى مثل ما كنت عليه في خيالك المتصل، وفي قوة كونه على الحقيقة في الخيال المنفصل، قال تعالى ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ أبان الله لنا فيما ذكره في هذه الآية، أن الذي كنا نظنه حقيقة محسوسة، إنما هي متخيلة يراها رأي العين، والأمر في نفسه على خلاف ما تشهده العين، وهذا سارٍ في جميع القوى الجسمانية والروحانية، وحقيقة الخيال التبدل في كل حال، والظهور في كل صورة، والحقائق لا تتبدل، فكل ما سوى ذات الحق فهو في مقام الاستحالة السريعة والبطيئة، وهو خيال حائل وظل زائل، فلا يبقى كون في الدنيا والآخرة وما بينهما، ولا روح ولا نفس، ولا شيء مما سوى الله ـ أعني ذات الحق ـ على حالة واحدة، بل يتَبدل من صورة إلى صورة دائماً أبداً، وليس الخيال إلا هذا، فهذا هو عين معقولية الخيال، فالعالم ما ظهر إلا في خيال، فهو متخيل لنفسه، وهو كله في صور مُثُلٍ منصوبة، فالحضرة الوجودية إنما هي حضرة الخيال، والوجود المُحْدَث خيال منصوب، ثم تقسم ما تراه من الصور إلى محسوس ومتخيل، والكل متخيل، وهذا لا قائل به إلا من أُشْهِدَ هذا المشهد، والشهود عناية من الله، أعطاها إيانا نور الإيمان، الذي أنار الله به بصائرنا، ومن علم ما قررناه، عَلِمَ عِلْمَ الأرض المخلوقة من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام، وعلم أن العالم بأسره ـ لا

بل الموجودات ـ هم عمار تلك الأرض، وما خلص منها إلا الحق تعالى، خالقها ومنشيها من حيث هويته، إذ كان له الوجود ولا هي.

(ف ح٢/ ٣١٣ - ح١/ ٤١ - ح٢/ ٢١٣ - ح٣/ ٥٢٥ - ح٢/ ٢١٣ - ح١/ ١١٦ - ح٣/ ٥٢٥)

توجه الاسم الإلهي القوي على إيجاد الخيال:

ما أوجد الله أعظم من الخيال منزلة ولا أعَمَّ حكماً، يسري حكمه في جميع الموجودات والمعدومات، من محال وغيره، فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجوداً من الخيال، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهي، وهو حضرة المجلى الإلهي في القيامة وفي الاعتقادات، فهو أعظم شعائر الله على الله، فمن أسرار الاسم الإلهي القوي، أن خَلَق عالم الخيال ليظهر فيه الجمع بين الأضداد، لأن الحس والعقل يمتنع عندهما الجمع بين الضدين، والخيال لا يمتنع عنده ذلك، فما ظهر سلطان القوي ولا قوته، إلا في خلق القوة المتخيلة وعالم الخيال، فإنه أقرب في الدلالة على الحق، فإن الحق هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فما حاز الصورة على الحقيقة إلا الخيال، وهذا ما لا يسع أحداً إنكاره، فإنه يجده في نفسه، ويبصره في منامه، فيرى ما هو محال الوجود موجوداً.

(ف ح٣/ ٥٠٨ - ح٤/ ٣٢٥)

واعلم أن في حضرة الخيال في الدنيا، يكون الحق محل تكوين العبد، فلا يخطر له خاطر في أمر ما، إلا والحق يكوّنه في هذه الحضرة، كتكوينه أعيان الممكنات إذا شاء ما يشاء منها، فمشيئة العبد في هذه الحضرة من مشيئة الحق، فإن العبد ما يشاء إلا أن يشاء الله، فما شاء الحق إلا أن يشاء العبد في الدنيا، ويقع بعض ما يشاء العبد في الدنيا في الحس، وأما في الخيال فكمشيئة الحق في النفوذ، فالحق مع العبد في هذه الحضرة على كل ما يشاؤه العبد، كما هو في الآخرة في عموم حكم المشيئة، لأن باطن الإنسان هو ظاهره في الآخرة، فلذلك يتكون عن مشيئته كل شيء إذا اشتهاه، فالحق في تصريف الإنسان في هذه الحضرة في الدنيا، وفي شهوته في الآخرة، لا في الدنيا حساً، فالحق تابع في هذه الحضرة وفي الآخرة

لشهوة العبد، كما هو العبد في مشيئته تحت مشيئة الحق، فما للحق شأن إلا مراقبة العبد، ليوجد له جميع ما يريد إيجاده في هذه الحضرة في الدنيا، وكذلك في الآخرة، والعبد تبع للحق في صور التجلي، فما يتجلى الحق له في صورة إلا انصبغ بها، فهو يتحول في الصور لتحول الحق، والحق يتحول في الإيجاد لتحول مشيئة العبد، في هذه الحضرة الخيالية في الدنيا خاصة، وفي الآخرة في الجنة عموماً، لأن الإنسان في الآخرة يتنوع ظاهره، كما كان يتنوع باطنه في الدنيا، في الصور التي يكون فيها التجلي الإلهي، فينصبغ بها انصباغاً، فذلك هو التضاهي الإلهي الخيالي، غير أنه في الآخرة ظاهر وفي الدنيا باطن، فحكم الخيال مستصحب للإنسان في الآخرة، وذلك هو المعبر عنه بالشأن الذي هو فيه الحق من قوله ﴿كل يوم هو في شأن﴾ فلم يزل ولا يزال، فإن من حُكْم نشأةِ الآخرةِ القوةَ التي لا ضعف يعقبها، فيتكون عن أهل السعادة حساً، ما يتكون هنا في الدار الدنيا في خيالهم معنى، وقد يكون في متعلق خاص حساً قدرة عليه، كمن يريد أن يقوم فيقوم، ويريد أن يكتب فيكتب، وأما ما لا قدرة له، ولا قوة له عليه أن يكون منه في الحس، فإنه يقوى على إيجاده خيالاً في نفسه، فإن الروح الواحد يدبر أجساماً متعددة، إذا كان له الاقتدار على ذلك، ويكون ذلك في الدنيا للولي بخرق العادة، وفي الآخرة نشأة الإنسان تعطي ذلك، كما يدبر الروح الواحد سائر أعضاء البدن، من يد ورجل وسمع وبصر وغير ذلك، وكما تؤاخذ النفس بأفعال الجوارح على ما يقع منها، كذلك الأجساد الكثيرة التي يدبرها روح واحد، أي شيء وقع منها يسأل عنه ذلك الروح الواحد، وإن كان ما يقع من هذا الجسم من الفعل مثل ما يقع من الجسم الآخر، فيكون ما يلزمه من المؤاخذة على فعل أحد الجسمين يلزمه على فعل الآخر، وكل ما يكون في الآخرة محسوساً، وإن كان في قضية العقل محالاً، فما استحال وجوده في الخيال، كذلك لا يستحيل وقوعه حساً، لأن الخيال على الحقيقة إنما هو حضرة من حضرات الحس، ولهذا يُلحِق المحال محسوساً، فيكون في الآخرة أو حيث أراد الله محسوساً، ولهذا كان في الآخرة لا في الأولى، فإن الخيال في الدرجة الأخيرة من الحس، فإنه عن الحس يأخذ ما يكسوه من الصور للمحال وغيره، فلهذا حيث كان لا يكون إلا في الآخرة، وأي قوة أعظم قوةً ممن يلحق المحال الوجود بالموجود المحسوس، حتى تراه

الأبصار، كوجود الجسم في مكانين، فكما تتخيله هنا كذلك يقع في الآخرة حساً سواء.
(ف ح٣/ ٥٠٩، ٤٧٠ ـ ح٤/ ٢٨٢ ـ ح١/ ٦٢١ ـ ح٤/ ٢٨٢)

خلق الخيال:

عالم الخيال المنفصل ـ أرض الحقيقة ـ مسرح عيون العارفين.قلنا: إن الله تعالى خلق خلقاً، إن قلت فيه موجودٌ صدقت، وإن قلت فيه معدومٌ صدقت، وإن قلت فيه لا موجود ولا معدوم صدقت، وهو الخيال، وهو حضرة وجودية صحيحة، وهو حضرة الخيال الصحيح الذي لا يدخله ريب، والمتخيلات فيه موصوفة بالوجود، ذات صور جسدية تلبسها المعاني والأرواح، فإنه قد بقي بعد خلق آدم عليه السلام فضلة من خميرة طينته، قدر السمسمة في الخفاء، فمَدَّ الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء، إذا جعل العرش وما حواه، والكرسي والسموات والأرضين وما تحت الثرى، والجنات كلها والنار، في هذه الارض، كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره، ويبهر العقول أمره، وفي كل نَفَسٍ خلق الله فيها عوالم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله، وعظمت عند المشاهد لها قدرته، وكثير من المحالات العقلية ـ التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها ـ هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله وفيها يجولون، وخلق الله من جملة عوالمها عالَماً على صورنا، إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها[1]، ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية، ومن خاصية هذه الأرض، أن صاحب الكشف العارف إذا وقع له تجل فيها، لم يفنه هذا التجلي عن شهوده، ولا اختطفه عن وجوده، وجمع له بين الرؤية والكلام، فإن التجليات الواردة على قلوب العارفين في هذه الدار، في هذه الهياكل، تأخذهم عنهم، وتفنيهم عن شهودهم، وكل ما أحاله العقل بدليله عندنا، كإيراد الكبير على الصغير، فهو في هذه الأرض ممكن وقد وقع، فإن الله على كل شيء قدير، وفيها يعلم أن العقول قاصرة،

(١) أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فيما روي عنه في حديث هذه الكعبة، وأنها بيت واحد من أربعة عشر بيتاً، وأن في كل أرض من السبع الأرضين خلقاً مثلنا، حتى إن فيهم ابن عباس مثلي ـ وصحت هذه الرواية عند أهل الكشف.